



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي



ستيفن هايمر*: روبنسون كروزو وسرّ التراكم البدائي

"كل كائن حي هو إمبريالي من نوع ما، يسعى إلى تحويل أكبر قدر ممكن من البيئة لذاته ولذريته."

برتراند راسل

ترجمة: مصباح كمال**

المحتويات

2 ملاحظة حول التراكم البدائي
4 (1) رأسمال التجار
7 (2) اقتصاد الجزيرة: الوضع ما قبل التجارة
13 (3) انفتاح التجارة: تشكيل استراتيجية الإمبراطورية
15 (4) الاستعمار
19 (5) الشراكة وإعادة الإنتاج الموسع
23 (6) العبرة
25 هوامش الكاتب
27 حاشية للمترجم



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

ملاحظة حول التراكم البدائي

يُستخدم كلمة "بدائي" هنا بمعنى "الانتماء إلى العصر الأول، الفترة الأولى، أو المرحلة الأولى"، أي أنها "أصلية وليست مشتقة"، وليس بمعنى "بسيط، فظ، أو خشن". المصطلح الأصلي عند ماركس كان "ursprüngliche akkumulation"، وكما يقترح بول سوزي [2004-1910]، كان من الأفضل ترجمته على أنه التراكم "الأصلي" أو "الأولي". ولكن فات أوان تغيير الاستخدام الحالي، وكلمة "بدائي" ينبغي أن تُفسر بالمعنى التقني، كما هو الحال في الرياضيات، حيث إن الخط أو الشكل البدائي هو عبارة عن خط أو شكل "يبدأ منه البناء أو الحساب". وفي علم الاقتصاد فإن "التراكم البدائي" يشير إلى الفترة التي بدأ فيها ظهور التراكم الرأسمالي. لم يكن التراكم بسيطاً، على الرغم من أنه كان فظاً وخشناً.

الشخصية المنفردة والمعزولة لروبينسون كروزو غالباً ما تُتخذ كنقطة انطلاق من قبل الاقتصاديين، خاصة في تحليلهم للتجارة الدولية. فهو يُصوّر بمثابة فرد قوي – دؤوب، ذكي، وقبل كل شيء مقتصد – تغلب على الطبيعة من خلال العقل. ولكن القصة الحقيقية لروبينسون كروزو، كما رواها ديفو، هي أيضاً قصة الغزو، والعبودية، والسرقعة، والقتل، والقوة. وليس مستغرباً تجاهل هذا الجانب من القصة على الإطلاق، "ففي السجلات الناعمة للاقتصاد السياسي تسود المثالية منذ زمن سحيق". التناقض بين روبينسون كروزو الحقيقي وكما يصوره الاقتصاديون يعكس التناقض بين الوصف الميثولوجي للتجارة الدولية كما يرد في كتب الاقتصاد المدرسية والحقائق الفعلية لما يحدث في الاقتصاد الدولي.

إن نموذج نظرية التجارة الدولية غير الماركسية هو نموذج الصياد hunter وصيد السمك fisherman الذين يتاجران لتحقيق منفعة متبادلة لكليهما في ظل ظروف من المساواة، والمعاملة بالمثل، والحرية. ولكن غالباً ما تقوم التجارة الدولية (أو، بالنسبة لهذه المسألة، التجارة بين الأقاليم) على التقسيم بين المنفوق والتابع بدلاً من التقسيم بين طرفين متساوين، وهو تقسيم يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون سلمياً. فهي تجارة بين المركز والمناطق النائية، بين المستعمرين والمستعمرين، بين الأسياد والعبيد. وهي مثل العلاقة بين رأس المال والعمل، لأنها تقوم على تقسيم المهام بين الأعلى والأدنى: أحد الطرفين يقوم بالتفكير والتخطيط والتنظيم؛ والآخر يقوم بالعمل. ولأنها غير متكافئة في البنية والأجر reward يتوجب إنشاؤها والإبقاء عليها بالقوة، سواء كان ذلك من خلال العنف الهيكلية للفقير، والعنف الرمزي للتنشئة الاجتماعية، أو العنف الجسدي للحرب والتهديئة.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

في هذا المقال أود مراجعة تفاصيل قصة كروزو¹ – بادئاً كتاجر للعبيد، وكيف استخدم فائض الآخرين للحصول على ثروة – وذلك من أجل توضيح تحليل ماركس للاقتصاد الرأسمالي، وخاصة فترة التراكم البدائي التي كانت نقطة انطلاق لها.

لكي يتحقق التراكم الرأسمالي، يجب أن يلتقي نوعين مختلفين من الناس في السوق (وفيما بعد في عملية الإنتاج)؛ من ناحية، أصحاب المال الحريصين على زيادة رأسمالهم عن طريق شراء قوة عمل الآخرين؛ من ناحية أخرى، عمال أحرار غير مُتقنين بالالتزامات ما قبل الرأسمالية أو الملكية الشخصية *personal property*. ومتى ما وطّدت الرأسمالية أقدامها، فإنها تحافظ على هذا الفصل وتقوم بإعادة إنتاجه على نطاق يتوسع باستمرار. ولكن هناك حاجة إلى مرحلة سابقة لتمهيد الطريق للنظام الرأسمالي والبدء بها – فترة من التراكم البدائي.

في الجزء الأخير من المجلد الأول من رأس المال، رسم ماركس العملية التاريخية التي تمّ من خلالها تركيز وسائل الإنتاج في يد الرأسمالي، تاركة العامل بدون بديل سوى العمل لديه. وبيّن كيف تم خلق العمل المأجور من خلال نزع ملكية السكان الزراعيين وتتبع نشأة الرأسمالي الصناعي وقيامه، من بين أمور أخرى، بنهب أفريقيا، وآسيا، وأمريكا "في بداية عصر الانتاج الرأسمالي". وفي قصة روبنسون كروزو، يصف ديفو كيف استطاع رجل إنجليزي في القرن السابع عشر جمع رأس المال ونظم قوة عمل للعمل لديه في البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي. بالطبع إن ما أنشأه كروزو لم يكن اقتصاد السوق كالذي ظهر في إنجلترا ولكن اقتصاد المزارع والمستوطنين كالذي كان يستخدم من قبل الرأسمالية في العالم غير الأوروبي. وبالتالي يمكن أن يطلق عليه قصة التخلف البدائي.⁽¹⁾

لقد كان ديفو (1659-1731) في وضع جيد بشكل خاص لمراقبة وفهم جوهر البرجوازية الصاعدة وأسرار أصولها. فهو ابن جزّار في لندن، اشتغل كوكيل تجاري في أعمال الجوارب والملابس الداخلية، وعمل تاجراً بالعمولة لحين إفلاسه. كتب خلال حياته العديد من المقالات والكراسات حول الاقتصاد، ناقش فيها، من بين أمور أخرى، مسائل تتعلق بالبُنوك، وإدارة الطرق، والجمعيات الأخوية والتأمينية، وملاجئ المعتوهين، والإفلاس، والأكاديميات، والكليات العسكرية، وتعليم المرأة، وبرامج الرعاية الاجتماعية، وورش العمل الوطنية. وكان واحداً من أوائل الكتاب في الاعتماد على السوق المتنامية للطبقة الوسطى لكسب عيشه.⁽²⁾

¹ نشرت الرواية في العام 1719 بعنوان:

The Life and Strange Surprising Adventures of Robinson Crusoe, of York, Mariner



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

(1) رأسمال التجار

Merchants' Capital

يمكن أن تروى قصة روبنسون كروزو باعتبارها سلسلة من الدورات cycles، بعضها تعمل في نفس الوقت، يُراكم من خلالها رأس المال. في الأيام الأولى تأخذ هذه الدورات شكل 'M-C-M'، أي إنه [روبنسون] يبدأ بالنقود، ويبادل النقود بالسلع، وينتهي مع مزيد من النقود. في مراحل لاحقة عندما يكون خارج الاقتصاد النقدي، فإنها تأخذ شكل C-L-C، حيث يستخدم مخزونه من السلع للسيطرة على عمل الآخرين، وإنتاج المزيد من السلع، لينتهي بتأسيس إمبراطورية صغيرة.

ولد روبنسون كروزو عام 1632. كونه ابن تاجر، كان بإمكانه أن يختار مهنة وسطية في الحياة [كونه ينتمي للطبقة الوسطى] middle station of life ويكون ثروته "من خلال الانكباب على العمل والكد، مع حياة الراحة والمتعة". لكنه بدلاً من ذلك اختار أن يسلك سبيل البحر – من أجل المغامرة، جزئياً، وبدافع الجشع.

يبدأ روبنسون كروزو أول رحلة له بمبلغ 40 جنيه استرليني من "اللعب والأشياء التافهة"، متوجهاً نحو سواحل غينيا (كرفيق على مائدة قبطان السفينة mess-mate ومرافق له companion والذي تصادق معه في لندن)، ويعود بخمس أرطال وتسع أونصات من الذهب قيمتها 300 جنية استرليني. هذه هي الدائرة الأولى من رأسماله. يودع 200 جنيه استرليني من هذا المبلغ في إنجلترا مع أرملة القبطان (توفي القبطان بعد فترة قصيرة من عودتهما) ويستخدم الـ 100 جنيه المتبقي كرأس مال جديد، وينطلق في رحلة ثانية كتاجر في غينيا من أجل كسب المزيد من رأس المال. ولكن بدلاً من ذلك يتعرض لكارثة إذ يستولي المغاربة² Moors على السفينة ويصبح عبداً في شمال أفريقيا. وينجح في الهروب من العبودية في قارب أخذه من سيده، يرافقه عبد آخر، زوري Xury، رجل أسود، الذي يعدّه بالقول: "زوري، إذا كنت ستكون وفيّاً لي، فإنني سأجعلك رجلاً عظيماً." يبحر الاثنان معاً لمسافة ألف ميل على طول الساحل الأفريقي إلى أن يلتقيان بقبطان برتغالي يقوم بإنقاذهما.

² للتعريف باستعمالات هذا الاسم راجع:

<https://en.wikipedia.org/wiki/Moors#:~:text=The%20term%20Moor%20is%20an,to%20Arabs%20and%20Arabized%20Iberians.>



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

ولحسن حظ روبنسون، هناك شرفٌ بين الرأسماليين. فالقبطان، الذي هو في طريقه إلى البرازيل، يشعر أنه سيكون من الظلم أن يأخذ كل شيء من روبنسون ليقله إلى البرازيل ويتركه مفلساً. "لقد أنقذت حياتك بدون شروط أخرى غير تلك التي سأكون سعيداً ليتم بها إنقاذي ... عندما أقلتُك إلى البرازيل، البعيدة جداً عن بلدك، وكان عليّ أن آخذ منك ما لديك، فسوف تجوع هناك، وبعد ذلك أكون قد سلبتُك الحياة التي أعطيتها لك."

روبنسون بالطبع لا يقول للقبطان إنه لا يزال يملك 200 جنيه استرليني في إنجلترا. بدلاً من ذلك، يبيع سفينته الصغيرة للقبطان (أي السفينة التي هرب بها) وكل ما فيه، بما في ذلك زوري. الأفريقي يظل أفريقياً، ولا يصبح عبداً إلا في شروط معينة. يعاني روبنسون شعوراً بالذنب لبيعه "حرية الصبي الفقير [زوري] الذي ساعدني بإخلاص للحصول على حريتي." ومع ذلك يعرض القبطان عتق زوري في عشر سنوات إذا أصبح مسيحياً. "بناءً على هذا، واستعداد زوري للذهاب معه [القبطان]، سمحتُ للقبطان أن يكون زوري له [يمتلكه]" (مقابل ستين قطعة من العملة الثمانية sixty pieces of eight).³ السلع هي أشياء لا يمكن أن تذهب إلى السوق بذاتها. لذلك يجب أخذها للسوق. وإذا كانت غير مستعدة لذلك، يمكن إجبارها عليه.

³ العملة الثمانية Pieces of eight هي عملات معدنية تاريخية بالدولار الإسباني تم سكها في الأمريكيتين من أواخر القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. كانت مصنوعة من الفضة، وكانت متداولة في جميع أنحاء العالم تقريباً بحلول أواخر القرن التاسع عشر وكانت عملة قانونية في الولايات المتحدة حتى عام 1857. كانت عملة الدولار الإسباني تساوي ثمانية ريالات reales ويمكن تقطيعها فعلياً إلى ثماني قطع أو "بتات" bits" للحصول على وحدات صغيرة [فكه] - ومن هنا جاءت التسمية العامية "قطع ثمانية". يمكن أيضاً تقطيع عملة الدولار إلى أرباع، وأصبحت "البتتان" في اللغة العامية الأمريكية معادلة لربع دولار، أو 25 سنتاً. إن الدولار الأمريكي المستخدم اليوم يعتمد على الدولار الإسباني.

لطالما ارتبطت هذه العملات بالقرصنة، لأنها كانت هدفاً مشتركاً للخارجين عن القانون، حيث كانت تشحن كميات كبيرة منها بانتظام من المستعمرات الأمريكية إلى إسبانيا. بالإضافة إلى ذلك، كان التجار الإسبان ينقلون العملات إلى مانيلا في الفلبين مرة أو مرتين في السنة للتجارة بالسلع الصينية. وقد أصبح العديد من القرصنة أثرياء بفضل اعتراضهم السفن التي تحمل قطعاً من ثمانية. غالباً ما يُقال إن كنوز القرصنة المدفونة تتضمن العملة المعدنية.

كانت العملة المعدنية المكونة من ثمانية قطع شائعة في المستعمرات البريطانية بأمريكا لأن العملة البريطانية كانت محدودة. بعد حصول الولايات المتحدة على الاستقلال، ظلت العملات المعدنية عملة مستخدمة على نطاق واسع. على الرغم من أن الولايات المتحدة بدأت في سك عملاتها المعدنية في عام 1792، ظل الدولار الإسباني ذو الجودة الأفضل هو العملة الأكثر شعبية في البلاد حتى أنهى الكونجرس استخدامه في عام 1857.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

يصل روبنسون إلى البرازيل حيث يقوم بشراء "أكبر قدر ممكن من الأراضي غير المستصلحة التي يمكن لأموالي الوصول إليها، ورسمت خطة لمزرعتي ومستوطنتي وخاصة تلك التي تتناسب مع المواد [السلع] التي كنت أنتظر استلامها من إنجلترا." وسرعان ما يكتشف "أكثر من ذي قبل، بأنني أخطأت في التخلي عن الصبي زوري،" لأنه بحاجة إلى المساعدة ووجد أنه "لا يمكن القيام بأي عمل إلا بعمل يدي."

يرسل روبنسون رسالة إلى الأرملة في إنجلترا من خلال صديقه القبطان البرتغالي مع تعليمات بإرسال نصف الـ 200 جنية إسترليني له بشكل بضائع. يأخذ القبطان الرسالة إلى لشبونة حيث يسلمها لبعض التجار من لندن لتوصيلها إلى لندن. وتقوم الأرملة بإعطاء المال لتاجر في لندن "لاستثمار المائة جنية إسترليني هذه في سلع إنجليزية، كما هو مُتَّبَت لدى القبطان، وإرسالها له مباشرة في لشبونة، وتوصيلها سالمة لي في البرازيل؛ ومن بينها، ودون توجيه مني (إذ كنت حديث السن جداً في عملي للتفكير بهذه السلع)، قيامه [القبطان] بانتقاء جميع أنواع الآلات، والأدوات الحديدية، والأواني اللازمة لمزرعتي، والتي كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة لي."

تصل البضائع ويتحقق بفضلها ثروة كبيرة لروبينسون. لقد استعمل القبطان البرتغالي الجنيهات الخمسة التي قدّمها له الأرملة لشراء هدية وتقديمها لروبينسون، "خادم مستعبد للخدمة ست سنوات، ودون أي مقابل باستثناء القليل من التبغ الذي سأفعله بقبوله، كونه من محصولي الخاص." وعلاوة على ذلك، كان روبنسون قادراً على بيع السلع الإنجليزية في البرازيل "بفائدة كبيرة جداً" وأول شيء يفعله هو شراء عبد أسود وخادماً ثانياً مستعبد للخدمة.

هذه السلسلة من المعاملات تفترض شبكة اجتماعية رأسمالية معقدة متداخلة. روبنسون الأسطوري يُصوّر كفرد مكتفي ذاتياً، ولكن الكثير من القصة الفعلية، حتى بعد غرق السفينة، تظهره كرجل تابع dependent ينتمي إلى مجموعة أكبر يعتمد دائماً على مساعدة وتعاون الآخرين. ويتبين أن الطبيعة الاجتماعية للإنتاج هي الرسالة الحقيقية لقصته كما سنرى مرة تلو الأخرى. وليس هناك مفارقة حقيقية في هذا المجال. فإنتاج العلاقات الاجتماعية الأكثر تطوراً في التاريخ وإنتاج الفرد المنعزل كلاهما ينتميان للرأسمالية.

يدمج روبنسون نفسه الآن في المجتمع باعتباره مزارعاً ناجحاً وينتج التراكم باطراد. لكنه لا يمكن أن يكون قانعاً وسرعان ما يترك "وجهة النظر السعيدة بكوني رجلاً غنياً ومزدهراً في مزرعتي الجديدة، جرياً وراء رغبة متهورة ومتطرفة للصعود بشكل أسرع مما تسمح به طبيعة الشيء."



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

كانت المزارع في البرازيل تنقصها العمالة، وذلك لأنه "لم يُولد إلا عدد قليل من الزوج، وكانت أثمانهم مفرطة" إذ أن تجارة العبيد في ذلك الوقت لم يكن قد تطور كثيراً وتسيطر عليها الاحتكارات الملكية لمملك إسبانيا والبرتغال. وقد ذكر روبنسون لبعض الأصدقاء رحلته إلى ساحل غينيا وسهولة الشراء هناك "مقابل أشياء تافهة ليس فقط لغبار الذهب ولكن الزوج بأعداد كبيرة." (ملاحظة هامة. إن التفاهات المذكورة هي الخرز، ولعب الأطفال، والسكاكين، والمقصات، والفؤوس، وقطع الزجاج، وما شابه – هي ليست تفاهات باستثناء المادتين الأولين، كما سيكتشف روبنسون عاجلاً). هؤلاء الأصدقاء اتصلوا به سرّاً بشأن خطة لتجهيز سفينة للحصول على العبيد من ساحل غينيا ثم يتم بعدها تهريبهم إلى البرازيل بصورة شخصية ويوزعون بين مزارعهم الخاصة بهم. لقد طلبوا من روبنسون أن يكون "مشرفاً على حمولة السفينة supercargo لإدارة الجزء الخاص بالتجارة وعرضوا عليه حصة متساوية من الزوج دون تقديم أي جزء من البضاعة."

يقبل روبنسون بهذا العرض، وفي هذه الرحلة حصل حادث غرق السفينة الشهير. بعد سنوات، وفي أعماق العزلة، خطر له أن يتأسف على هذا القرار الذي ينظر إليه كخطيئته الأولى: "عدم الرضى عن مكانته التي وضعها الله والطبيعة فيه."

ما الذي اضطرني إلى ترك ثروة مستقرة، مزرعة جيدة التجهيز، تتحسن وتنمو باستمرار، لأكون مشرفاً على حمولة سفينة متجهة إلى غينيا، لجلب الزوج، في حين أن الصبر والوقت كانا سيزيدان مخزوننا في الوطن وكان بمقدورنا أن نشترىهم [الزوج] من أولئك الذين يعملون على جلبهم؟ على الرغم من أنه قد يكلفنا شيئاً أكثر [شراء الزوج من الغير]، ولكن الفرق في ذلك السعر وتوفيره بأي حال من الأحوال لم يكن يعادل مثل هذه المخاطرة الكبيرة.

في الواقع هو في هذا يسبق نفسه لأنه في نهاية القصة نجح روبنسون في تحقيق تراكم أسرع بكثير مما لو كان قد بقي قانعاً، لأنه يضيف ثروة جديدة من اقتصاد جزيرته لنمو مزرعته. صحيح، كان عليه أن يعاني لفترة طويلة من العزلة، ولكن من نواح كثيرة فإن إقامته الانفرادية تمثل الاغتراب alienation الذي يعاني منه الجميع في ظل الرأسمالية – أولئك الذين يعملون ويستلمون القليل [كأجور لقاء عملهم] وكذلك أولئك الأفراد مثل روبنسون الذي يجب عليه أن يحقق التراكم دائماً وعليه أن يتقدم ويتقدم.

(2) اقتصاد الجزيرة: الوضع ما قبل التجارة

Island Economy: The Pre-Trade Situation



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

إن العوامل الرئيسية في نجاة روبنسون كروزو والازدهار في جزيرته السعيدة ليست براعته وسعة حيلته ولكن المناخ اللطيف والمخزون الكبير للعمل المُجسّد embodied labor الذي يبدأ به. ففي ثلاثة عشر رحلة إلى سفينته المحطمة كان قادراً على تجهيز نفسه بأشياء كثيرة، مع مجموعة كبيرة من المواد والأدوات التي لم يصنعها بنفسه أبداً ولكنها صارت له للتمتع بها. استخدم هذه المواد للسيطرة على الطبيعة وعلى رجال آخرين. وكان الأكثر أهمية في هذا المخزون الأولي لوسائل الإنتاج هو الامدادات الوفيرة من البنادق والذخيرة، والتي منحته ميزة حاسمة في تحديد معدلات التبادل التجاري عند فتح اقتصاد جزيرته أخيراً أمام التجارة.

كان روبنسون يدرك تماماً أهمية تركته (انظر الجدول 1). فهو يتساءل: "ما الذي كنت أستطيع القيام به من دون بندقية، ومن دون ذخيرة، وبدون أي أدوات لصنع أي شيء أو العمل بها، ومن دون ملابس، وفراش، وخيمة، أو أي شكل من أشكال الغطاء؟" "عن طريق الحكم الأكثر عقلانية على الأشياء فإن كل واحد يمكن، مع مرور الوقت، أن يكون مُعلماً لكل فن ميكانيكي. لم يسبق لي استعمال أداة في حياتي، ولكن مع الزمن، من خلال العمل، والتطبيق، والاختراع، رغم أنني لم أكن راغباً بشيء كان بإمكانني صنعه، خاصة إذا كانت لدي الأدوات." [التشديد مضاف من الكاتب]. الأوروبي هو الأوروبي فقط في ظل ظروف معينة يصبح سيداً. لم تكن السمات الشخصية لروبينسون والمغامرين الأوروبيين الآخرين وراء قوتهم في مواجهة غير الأوروبيين ولكن المعدات التي أحضروها معهم، قوة المعرفة المُحوّلة إلى أشياء. لقد كانت هذه القاعدة المادية نتيجة لتقسيم اجتماعي معقد للعمل الذي كانوا المستفيدين منه وليس الخالقين له.

الجدول (1) المواد التي اخذها روبنسون كروزو من حطام سفينة

ذخيرة، أسلحة، بارود، برميلان من رصاص البنادق، ما بين خمس إلى سبع بنادق، حقيبة كبيرة مليئة بالرصاص الصغير	مواد دفاعية
بسكويت، شراب الرّم، خبز، أرز، جبن، لحم الماعز، ذرة، خمور، دقيق، عصائر، حلويات، أعلاف للدواجن، قمح، بذور الأرز	أغذية
ملابس رجالية، مناديل، ربطات عنق ملونة، زوجين من الأحذية	ملابس
أرجوحة شبكية، أغطية فراش، أقلام، حبر، ورق، ثلاث أو أربع بوصلات، بعض أدوات رياضية، أقراص ساعات، مناظير، رسوم بيانية، كتب حول الملاحة، ثلاثة أناجيل	أثاث و مواد مختلفة
صندوق أدوات نجارة، ثلاثة أكياس مليئة بالمسامير، مسامير	أدوات



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

غليظة، مقبس لولبي كبير، رافعة لولبية، دزينة أو اثنتين من الفؤوس الصغيرة، مجلخة [حجر الشحذ]، منشارين، فأس، مطرقة، اثنين أو ثلاث عتلات، اثنين أو ثلاث شفرات حلاقة، مقص كبير، مجرفة النار وملقط، غلايتي نحاس أو اني نحاسية، مشبك للشوي	
حيال أشرعة وصواري، أشرعة كتانية، حبال صغيرة، حبال وأسلاك، مصنوعات حديديه، أخشاب، لوحات خشبية، اثنين أو ثلاثة قنطار من الحديد، وقنطار واحد من ألواح الرصاص	مواد خام
كلب، قطتان	حيوانات
حبر، مجرفة، معول، إبر، دبابيس، خيوط، غليون	أشياء يفتقدها بشدة

كانت جزيرته غنية، ومرة أخرى يرجع الفضل في ذلك جزئياً إلى أنشطة أشخاص آخرين. يقوم بمسح جزيرته مع فهم قليل لأن معظم النباتات فيها كانت غير مألوفة له. ولا يتوصل إلى أي اكتشاف مستقل لكنه يجد بعض الأشياء المألوفة – الماعز، والسلاحف، والفواكه، والليمون، والبرتقال، والتبغ، والعنب – وأتصور أن العديد منها لم تكن موجودة هناك إلا بفضل زرعها من قبل زوار سابقين من جزر أخرى. اكتشافه للزراعة كان عَرَضياً. فمن بين الأشياء التي أنقذها من السفينة كيس صغير كان ذات مرة مليئاً بالحبوب. لم يرَ روبنسون أي شيء في الكيس سوى القشور والغبار، ولأنه كان بحاجة للكيس لغرض آخر، هزه فسقطت القشور على الأرض. وبعد شهر أو نحو ذلك، ودون أن يتذكر بأنه ألقى القشور هناك، فإنه "اندعش تماماً" ليرى شعيراً ينمو.

يحاول كروزو، ضمن التقاليد الرأسمالية المُكَيِّفة لتفكيره، تسجيل أنشطته "فما دام الحبر موجوداً كنت دقيقاً جداً في كتابة الأشياء؛ ولكن بعد أن نفذ، لم أستطع ذلك، لأنني لم أتمكن من صنع أي حبر بأي وسيلة استنبطتها." ويرسم تحليل التكلفة والعائد لوضعه، مشيراً فيه "بحيادية عالية كمدِين ودائن، وسائل الراحة التي استمتعت بها، مقابل المآسي التي عانيت منها." ويجد يومه مقسماً إلى ثلاثة. فأمر الخروج مع بندقيته لا يستغرق سوى حوالي ثلاث ساعات، للحصول على طعامه. وينفق جزء آخر من يومه في ترتيب، ومعالجة، والحفاظ على [الأطعمة]، والطهي. وينفق الجزء الثالث على تكوين رأس المال، زراعة الشعير والأرز، وحفظ الزبيب، وصنع الأثاث وقارب، وهكذا دواليك.

قد يبدو هذا الشغف بالمحاسبة تأكيداً للصورة التي يرسمها عالم الاقتصاد لروبنسون بوصفه الإنسان العقلاني بامتياز، مُخصّصاً وقته بكفاءة بين الأنشطة المختلفة من أجل تحقيق أقصى



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

منفعة. ولكن بعد ذلك تأتي هذه الملاحظة المذهلة "ولكن وقتي أو عملي لم يكن ذا قيمة كبيرة، وهكذا فإن استخدامه سيكون جيداً، بطريقة واحدة أو أية طريقة أخرى!" وعلى عكس النماذج المعتادة في النظرية الاقتصادية، فإن روبنسون كروزو، الذي ينتج فقط للاستعمال وليس للتبادل، يكتشف أنه لا يوجد ندرة وأن العمل ليس له قيمة. إن القوة المُحرّكة للرأسمالية، الشغف الكامن وراء التراكم قد اختفى لديه عندما كان وحيداً "فكل ما يمكن الاستفادة كان له قيمة... إن البخيل المقتر، الأكثر طمعاً في العالم، كان سيشفى من رذيلة الطمع، لو كان في مثل حالتي."

إن تفسير روبنسون الخاص لهذه الظاهرة يقوم أساساً على الطلب. لأنه وحيد، فإن حاجاته محدودة ويتم اشباعها قبل أن يستنفد وقت العمل المتاح له:

كنت بعيداً عن كل شرور العالم هنا. لم يكن لي لا شهوة الجسد ولا شهوة العين أو غطرسة الحياة. لم يكن هناك شيئاً لأطمع به؛ إذ كان لي كل ما كنت الآن قادراً على الاستمتاع به. لقد كنت سيد المزرعة كلها؛ أو إذا رغبت، قد أسمى نفسي الملك، أو الإمبراطور على كامل أنحاء البلاد والتي كانت في حيازتي. لم يكن هناك أنداداً لي. لم يكن لدي أي منافس....

وهذا صحيح إلى حد ما، لكنه متحيز. فجشع روبنسون اختفى بسبب عدم وجود الناس لتنظيمهم والسيطرة عليهم. كانت أطروحة ماركس أن العمالة الفائضة surplus labor هو المقياس والمصدر الوحيد للثروة الرأسمالية. فبدون وجود عمل شخص آخر للسيطرة عليه يتلاشى نظام القيمة للرأسمالي؛ فلا يوجد عطش لا حدود له للعمل الفائض ينشأ من طبيعة الإنتاج نفسها؛ إن أهداف الكفاءة والتعظيم [زيادة الإنتاج] والتراكم تلاشت في نظام أوسع من القيم.

وفي وقت لاحق، عندما تصبح جزيرة روبنسون مأهولة بالسكان، يعود الشغف بالتنظيم والتراكم. عندما لا يكون له سوى عمله الذي يسيطر عليه فإن العمل لا يتسم بالندرة ويتوقف عن قياس الأشياء من حيث وقت العمل [الداخل في إنتاجها]. وكما تبين إشارة روبنسون إلى البخيل، فإنه ليس مجرد مسألة الطلب على السلع الاستهلاكية. إن البخيل يراكم ليس للاستهلاك ولكن للتراكم، تماماً كما الرجل صاحب الهدف في العصر الرأسمالي، كما لاحظ كينز، "لا يُحبُّ قطته، ولكن صغار القطّة؛ ولا، في الحقيقة، صغار القطط، ولكن فقط صغار القطط القطط الصغار، وهلم جرا إلى الأمام إلى الأبد إلى نهاية مملكة القط cat-dom. بالنسبة له فإن المُربّي ليس مربّي ما لم يكن هناك مربّي غدا وبالقطع ليس مربّي اليوم." (3) إن النقود ورأس المال علاقات اجتماعية تمثل السلطة الاجتماعية على الآخرين. وبغض النظر عن ما يدور في



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

أذهان البخلاء والرأسماليين عندما ينظرون في أموالهم، إنه السلطة على الناس التي تشكل هدف المحاسبة والتراكم، لأنهم سيكتشفون، مثل روبنسون، إن كانوا قد تركوا وحيداً.

روبنسون يدرك هذا جزئياً عندما يتأمل في عدم فائدة الذهب في جزيرته:

ابتسمت لنفسي على مرأى من هذا المال. "أيها المُخَدَّر!"⁴ قلت بصوت عالٍ، "ما هي الفائدة منك؟ أنت لا تساوي شيئاً لي، لا، فأنت لا تحفر الأرض، واحدة من تلك السكاكين تساوي جميع هذه الكومة. ليس لدي أي طريقة استخدام لك؛ حتى لو بقيت حيث أنت، وتغرق كمخلوق حياته لا يستحق الانقاذ." ومع ذلك، وبعد التفكير ثانية، أخذته

وهو بذلك ينفي النظام الميركنتالي الذي جعل من الذهب صنماً، لكنه لا يخترق تماماً حجاب النقود، لكشف الأساس الكامن وراء فائض العمل، في نظرياته، أي أنه في ممارسته اليومية يدرك تماماً الأساس الحقيقي للاقتصاد. ويظهر هذا عندما يناقش مفهوم الطمع. فبالنسبة لروبنسون، فإن خطيئته الأصلية هي جريمة الرغبة في الارتفاع فوق موقعه الطبقي بدلاً من اتباع المهنة التي اختارها له والده. جاءت عزلته واغترابه عقاباً له، وهو يشعر أن قصته يجب أن تكون درساً لأولئك "الذين لا يستطيعون الاستمتاع قانعين بما أعطاهم الله..". إنه يشعر بالذنب لانتهائه المؤسسات الإقطاعية للمكانة، والنظام الأبوي، والله. إنه لا يعتبر أنه عندما يراكم، فإنه ينتهك أولئك الذين يستغلهم - زوري Xury، والأفارقة الذين باعهم كعبيد، وخدمه المستعبدين، وفي وقت لاحق جمعة وغيرهم. من وجهة النظر الأيديولوجية، فإن روبنسون هو رجل انتقالي ينظر إلى الوراء وإلى الأعلى بدلاً من الأمام وإلى الأسفل. هذا هو السبب في أنه لا يتعلم شيئاً (من الناحية الأخلاقية) من وحدته. البخيل لا يشفي في الحقيقة، ومن السهل أن يرجع إلى رذيلة الطمع.

نظراً لأن علاقة التجارة والتراكم والاستغلال ضرورية جداً لفهم الاقتصاد، فمن المناسب أن نتناولها قليلاً. يمكن إرجاع هذه الأطروحة إلى أرسطو، الذي رأى أن المجتمع المكتفي ذاتياً لن يكون مدفوعاً بالندرة والتراكم، نظراً لأن الاحتياجات الطبيعية كانت محدودة ويمكن إشباعها بسهولة بوجود الكثير من الوقت المتبقي لقضاء وقت الفراغ. مثل هذا المجتمع من شأنه أن يمارس فن الإنتاج المنزلي householding الذي يعتمد القيمة الاستعمالية هدفاً له. لكن أرسطو، وهو شاهد عيان على نمو السوق في أول ظهور له، لاحظ أن هناك فناً آخر للحصول على الثروة - تجارة البيع والشراء - commercial trade التي لا حدود لها، إذ أن هدفها هو

⁴ المُخَدَّر هنا إشارة إلى النقود، الذهب والمال عموماً. الاقتباس يشير إلى ازدياد روبنسون كروزو للمال.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

تراكم القيمة التبادلية لمصلحتها. كان أرسطو مهتمًا بالآثار المترتبة على نهوض التجارة أكثر من اهتمامه بالأساس الذي تقوم عليه هذه التجارة، ولم يربط بين القيمة التبادلية وفائض العمل. لكن هذه الرابطة كانت موجودة ليراها الجميع. لقد كان ظهور السوق في أثينا القديمة نتيجة ثانوية لتوسعها الإمبراطوري، ونهب الأراضي المحررة من الفرس، وجمع الجزية والضرائب من الدول اليونانية الأخرى لقاء الحماية، والتحويل القسري لتجارة المنطقة إلى ميناء أثينا.(4)

على الرغم من عدم دقة كينز من الناحية التحليلية، فقد لمح نفس النقطة في مقالته عن "الاكتفاء الذاتي الوطني" حيث رأى غريزيًا أن بعض الانسحاب من التجارة الدولية ضروري لجعل الحياة [الوجود الإنساني]، الذي صار ممكنًا بفضل العلم، ممتعة وجديرة بالاهتمام. لقد أراد تقليل التشابكات الاقتصادية بين الدول بدلاً من تعظيمها بحيث يمكننا أن نكون "أسيادا" لأنفسنا و"نقوم بتجارنا المفضلة للوصول إلى جمهورية اجتماعية مثالية في المستقبل." لقد كان موافقًا بقوة للتبادل الحر للأفكار، والمعرفة، والعلوم، والضيافة، والسفر، "ولكن دع البضائع تُنتج وطنياً home-spun كلما كان ذلك ممكناً بشكل معقول وتجاريًا، وقبل كل شيء دع التمويل ليكون وطنياً في المقام الأول." كان يعلم أن المشكلة لم تكن مشكلة الاستهلاك البغيض، ولكن الرغبة في التوسع من خلال اختراق الأسواق الخارجية بالصادرات والاستثمار، والتي تعني في الحقيقة محاولة تحويل أكبر قدر ممكن من العالم لصالح [المركز] وإفرازاته، أي الإمبريالية.(5)

بالعودة إلى روبنسون كروزو، من المهم أن نلاحظ أن عزلته لم تكن مصحوبة بالوحدة بقدر ما كانت مصحوبة بالخوف. كان أول شيء فعله عندما وصل إلى جنته الكاريبية الجميلة هو بناء حصن لنفسه. فقط عندما كان "مسيحًا ومحصنًا" تمامًا من جميع العالم، "نام آمنًا في الليل." إن احتياطياته خلال السنوات الإحدى عشرة الأولى عندما كان بمفرده تمامًا مذهلة. ومع ذلك، خلال هذه السنوات لم يكن في خطر من الحيوانات البرية أو أي شيء حي. مشكلته الرئيسية تأتي من الطيور التي تسرق بذوره. إنه يتعامل معها بفاعلية وبسرعة، بإطلاق النار على البعض منها، ثم "حَمَلُهَا وعرضتها كما نعرض اللصوص سيئي السمعة في إنجلترا، أي، تعليقها في سلاسل لإرهاب الآخرين." وكما سنرى في القسم التالي، عندما يقع نظره على إشارات بوجود بشر آخرين، فإنه لا يقفز من الفرحة، والاستعداد للمخاطرة بكل شيء لسماع صوت بشري بعد سنوات عديدة في الحبس الانفرادي. وبدلاً من ذلك، ترتفع مخاوفه وقلقه إلى درجة الاهتياج، ويقوم بتسييج وتحصين نفسه أكثر فأكثر، وينسحب أكثر فأكثر إلى العزلة.

ربما هذا ما يجب أن يتوقعه المرء من رجل منعزل لفترة طويلة. لكن في بعض الأحيان يبدو لي أن ديفو، في وصف روبنسون كروزو، لم يكن يتحدث فقط عن رجل أصبح منعزلاً عن طريق الصدفة، ولكنه يقدم قصة رمزية عن حياة البشر في المجتمع الرأسمالي— وحيد، فقير، بدون يقين، خائف. إن العزلة هي أكثر حدة في عقل روبنسون مما كانت عليه في وضعه



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

الفعلي. لأن ما يتبين بوضوح، في مواجهة تلو أخرى، هو أنه عندما يتعين على روبنسون مواجهة شخص آخر، فإنه يتفاعل معه بالخوف والريبة. إن عزلته، باختصار، ليست أكثر ولا أقل من اغتراب الفردية التملكية⁵ possessive individualism، الذي يتكرر مليون مرة في المجتمع الرأسمالي، وفي أيامنا هذا يجد رمزيته في الملجأ الخاص للدفاع المدني [المسكن] المحمي من الجيران ببندقية آلية.

(3) انفتاح التجارة: تشكيل استراتيجية الإمبراطورية Opening Up of Trade: Forming an Imperial Strategy

إن انفتاح اقتصاده على العالم الخارجي لا يأتي بالنسبة لروبنسون كروزو بشكل أسعار مجردة تنشأ في أسواق مجهولة ولكن بشكل أشخاص حقيقيين يجب أن يتعامل معهم. بعد خمسة عشر عامًا في الجزيرة، وجد بصمة قدم رجل عارٍ على الشاطئ. أول رد فعل له هو الخوف. لقد كان "مرعوبًا إلى أقصى حد، أنظر ورائي كل خطوتين أو ثلاث، وأخطأ في تمييز كل شجيرة وشجرة، وأتخيل كل جذع شجرة مقطوعة على مسافة ليكون إنساناً." يذهب إلى معتكفه. "لم تخف أبدًا أرنبه هربت إلى ساتر، أو ثعلبًا إلى وجر، برعب ذهني أكثر مني." منذ ذلك الحين، عاش "في شرك خوف دائم من الإنسان ... حياة من القلق والخوف والتحوط."

يفكر روبنسون في تدمير حظيرة الماشية، وحقل الحنطة، والمسكن، "حتى لا يجدون مثل هذه الحبوب فيها ... ومع هذا يجدون في البحث، من أجل اكتشاف الأشخاص القاطنين فيها." لقد بنى جدارًا ثانيًا من التحصينات، مسلحًا بسبعة بنادق مركبة كمدفع ومثبتة "في إطارات تحملها مثل عربة، حتى أتمكن من إطلاق جميع البنادق السبعة في غضون دقيقتين. لقد استغرق مني الانتهاء من إكمال هذا الجدار شهرًا مرهقًا من العمل، ومع ذلك لم أشعر بالأمان حتى تم الانتهاء منه." يقوم بتثبيت عصي أو أوتاد على الأرض خارج جداره بحيث يكون لديه في غضون خمس أو ست سنوات "غابة أمام مسكني تنمو بشكل وحشي كثيفة وقوية لدرجة أنه حقًا غير سالكة تمامًا؛ ولا يمكن للبشر من أي نوع أن يتخيل أن هناك أي شيء وراء ذلك."

بعد ثلاث سنوات من رؤيته لبصمة القدم، عثر على عظام وبقايا أكلة لحوم البشر. (نترك جانباً السؤال التاريخي حول ما إذا كان الكاربيبيون يمارسون أكل لحوم البشر أم لا. ويكفي أن

⁵ راجع:

C. B. Macpherson, *The Political Theory of Possessive Individualism: Hobbes to Locke* (Oxford University Press, 1962)

يمكن ترجمة العنوان النظرية السياسية للفردية الحيازية أو التملكية. اعتقد أن هذا الكتاب لم يترجم للعربية.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

روبينسون اعتقد ذلك. يلعب الاستعداد الأوروبي للاعتقاد بأن الآخرين كانوا من أكلة لحوم البشر، بغض النظر عن الحقيقة، نفس الدور في تحديد أنماط التجارة كما أظهره التضامن الأوروبي، على سبيل المثال، بين القبطان البرتغالي وروبينسون). تراجع روبينسون أكثر "لأطلّ قريبًا من دائرتي لمدة عامين تقريبًا."

يتلاشى الخوف تدريجيًا ويبدأ في الخروج [من دائرته] أكثر. لكنه يتحرك بحذر. فهو لا يطلق بندقيته خوفًا من أن يُسمع صوته، وهو مسلح دائمًا ببندقية ومسدسين وسيف. حتى أنه يفكر أحيانًا في الهجوم، ويبنى مكانًا يمكنه من خلاله "تدمير بعض هذه الوحوش في ترفيهم الدموي القاسي [أكل لحوم البشر]، وإن أمكن، إنقاذ الضحية في حال إحضارها لتدميرها [لأكلها]." لكنه يعتقد بعد ذلك أن "هؤلاء الناس لم يتسببوا لي بأي أذى... وبالتالي فإنه ليس من العدل مهاجمتهم." وهو يوبخ الإسبان على همجيتهم في أمريكا "حيث دمروا الملايين من هؤلاء الناس... مجرد مجزرة، مثال دموي وغير طبيعي من القسوة، لا تبرير لها من الله أو الإنسان؛ حيث يُعتبر اسم الإسباني نفسه مخيفًا ومرعبًا لجميع البشر أو من ذوي الشفقة المسيحية." لذلك قرر أنه "ليس من شأنى العبث معهم ما لم يهاجموني أولاً."

خلال السنوات القليلة التالية، صار "أكثر انزواءً من أي وقت مضى"، ونادرًا ما يخرج من مأواه. لقد وضع الخوف "حدًا لجميع الابتكارات وجميع الأدوات التي قمت بها لسد حاجاتي في المستقبل." كان يخشى دق مسمار أو قطع عود خشب أو إطلاق بندقية أو إشعال نار خوفًا من سماعها أو رؤيتها. إنه لا يريد "شيئًا أكثر من ملاذ آمن" ويجده في مغارة خفية. "تخيلت نفسي الآن كواحد من العمالقة القدامى الذين قيل إنهم يعيشون في الكهوف والجحور، حيث لا يمكن الوصول إليهم." ولكن حتى في هذه العزلة العميقة، كان يخشى البشر فقط. مع وجود بعض الببغاوات والقطط وصغار الماعز وطيور البحر المدججة كحيوانات أليفة، "بدأت أكون راضيًا جدًا عن الحياة التي أعيشها، إذا كان من الممكن أن تكون كذلك: محمية من رعب الوحوش."

في عامه الثالث والعشرين، شاهد أخيرًا بعض الكاريبيين الذين يزورون الجزيرة بشكل دوري. في البداية ينزوي في تحصيناته. ولكن لأنه لم يعد "قادرًا على تحمل البقاء في الجبل"، يتخذ له مكانًا آمنًا يلاحظ منه "تسعة متوحشين عراة جالسين حول نار صغيرة." وهنا يبدأ بالتفكير مرة أخرى في "تدبر كيفية الالتفاف والهجوم عليهم في المرة القادمة" وسرعان ما يحلم "في كثير من الأحيان بقتل المتوحشين." تشتد وحدته عندما يسمع في إحدى الليالي طلقة نارية أطلقت من سفينة منكوبة وفي اليوم التالي يجد حطام السفينة. يتوق للتواصل مع الأوروبيين. "أه لو أنه كان هناك واحد أو اثنان، لا بل شخص واحد نجا من هذه السفينة، وجاء إليّ، ليكون لي رفيق واحد، وانسان واحد يحدثني وأتجاذب الحديث معه!"



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

أفكاره تأخذ بالتحول من الدفاع إلى الهجوم. وتراجعت مخاوفه الأخلاقية بشأن الاستعمار الإسباني إلى الخلفية، ويبدأ بتخطيط استراتيجية إمبراطورية. تأتي الخطة إليه في حلم حيث يهرب أسيرٌ وحشي، ويهرع إليه ويصبح خادمًا له. بعد أن استيقظ، "لقد توصلتُ إلى هذا الاستنتاج، أن الطريقة الوحيدة للشروع في محاولة الهروب هي، إن أمكن، إضافة [إنسان] وحشي إلى ممتلكاتي؛ وإذا أمكن، يجب أن يكون أحد السجناء." لكن لديه بعض المخاوف بشأن ما إذا كان يمكنه القيام بذلك، وبعض الهواجس الأخلاقية حول ما إذا كان يجب عليه القيام بذلك؛ ولكن على الرغم من أن "أفكار سفك الدم البشري من أجل خلاصي كانت فظيعة بالنسبة لي،" إلا أن رأيه استقر بعد تفكير طويل على "أن أحصل على أحد هؤلاء المتوحشين، مهما كان الثمن."

بعد حوالي عام ونصف تصل مجموعة من حوالي عشرين أو ثلاثين كاريبيًا إلى الشاطئ. صار الحظ بجانبه. يهرب سجين واحد يتبعه رجلين فقط. "انصبتُ أفكارني الآن، وبقوة، وفي الواقع بشكل لا يقاوم، على أن الوقت قد حان الآن للحصول على خادم، وربما رفيق أو مساعد."

يطرح روبنسون أحد المطاردين أرضًا ويطلق النار على الثاني. يقترب منه السجين المُنقذ، بحذر وخوف. "اقترب أكثر فأكثر، راکعًا على ركبتيه كل عشر أو اثنتي عشرة خطوة ... وبعد مضي الوقت اقترب مني، ثم جثا مرة أخرى، وقبّل الأرض، ووضع رأسه على الأرض، وأخذ قلمي ووضع على رأسه. هذا، على ما يبدو، كان علامة على القَسَم بأن يكون عبدي إلى الأبد." وهكذا حصل روبنسون على خادمه. وهكذا يولد الاقتصاد economy

(4) الاستعمار

Colonization

جمعة، المُتعب من محنته، ينام. يقوم روبنسون بتقييم ما فاز به. العلاقة التي هما على وشك الدخول فيها هي علاقة غير متكافئة وعنيفة. (إن "العنف"، كما كتب آر دي لينج R. D. Laing في كتابه *The Politics of Experience*، "يحاول تقييد حرية الآخر، لإجباره على التصرف بالطريقة التي نرغب فيها، ولكن مع عدم الاهتمام المطلق، مع عدم الاكتراث بوجود الآخر أو مصيره.(6) إن العنف يتطلب بنية فوقية أيديولوجية للحفاظ عليه وجعله مقبولاً. جمعة شخص مستقل له عقله وإرادته. لكن حكم روبنسون يعتمد على مدى سيطرة رأسه [عقل روبنسون] على يد جمعة. لمساعدة نفسه في صراعه اليومي مع جمعة، يبدأ روبنسون في التفكير بجمعة ليس كشخص بل كنوع من الحيوانات الأليفة، كيان بلا عقل مُطيع وجميل. (إن



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

"استخدام العبيد والحيوانات الأليفة لا يختلف كثيراً؛ لأن أجسادهم تخدم احتياجات الحياة."
أرسطو، الجمهورية.⁶ فيما يلي اقتباس حرفي لوصفه جمعة، باستثناء استبدال "هي" "she"
بكلمة "هو" "he" و [الضمير المتصل] "هي" "her" بدلاً من [الضمير المتصل] "هو" "him".
ليس الهدف هو الإيحاء بالمثلثة الجنسية ولكن للتأكيد على كيفية تصور الحكام للمحكومين فقط
ككيانات تخدم احتياجاتهم. (على حد قول أرسطو مرة أخرى، "الذكر بطبيعته متفوق، والأنثى
أقل شأنًا؛ والواحد يحكم والآخر محكوم." (7))

لقد كانت امرأة جميلة، امرأة وسيمة، مصنوعة بشكل جيد، بأطراف مستقيمة قوية، ليست كبيرة
جداً، طويلة وحسنة الشكل، وكما أعتقد، عمرها حوالي ستة وعشرين عاماً. كان لها وجه جيد
جداً، محياها ليس شرساً وعنيفاً، ولكن يبدو أن لديها مسحة رجولية جداً في وجهها ومع ذلك
كانت تتمتع بكل حلاوة ونعومة الأوروبيين في وجهها أيضاً، خاصة عندما تبتسم. كان شعرها
طويلاً وأسوداً، غير مجعد كالصوف؛ جبهتها عالية جداً وكبيرة، وحيوية كبيرة وحدة متألثة في
عينها. لم يكن لون بشرتها أسوداً تماماً، ولكنه كان أسمرًا جداً؛ ومع ذلك، فهي ليست صفراء
قبيحة، صفرة تبعث على الغثيان، مثل البرازيليين والفيرجينيين، وغيرهم من سكان أمريكا
الأصليين؛ ولكن نوع مشرق من لون زيتوني يحتوي على شيء مقبول للغاية، على الرغم من
أنه ليس من السهل وصفه. كان وجهها مستديراً وممتلئاً. أنفها صغير، غير مسطح مثل
الزنوج، فم جيد جداً، وشفاه رقيقة، وأسنانها الرفيعة جيدة، وبيضاء مثل العاج.

روبنسون لديه بندقية، لكنه لا يمكن أن يحكم بالقوة وحدها إذا أراد لجمعة أن يكون مُنتجاً. لا بدَّ
له من الاختلاط مع خادمه لقبول موقعه المرووس. يتمتع روبنسون بميزة كبيرة لأنه أنقذ حياة
الرجل، لكن وجود برنامج دقيق لا يزال ضرورياً، يمر بمراحل متعددة للتنمية، وذلك قبل
استيعاب الخادم internalizes للعلاقة السلطوية ويصبح قادراً على التصرف "بشكل مستقل"
ولكن ضمن علاقة "تبعية". أوجه التشابه بين تعليم روبنسون لجمعة، والإجراءات الفعلية
للاستعمار المستخدمة في المائتي سنة الماضية هي ملفتة للنظر.

الخطوة 1. أول شيء يفعله روبنسون هو تمهيد الطريق للخطاب بإعطاء نفسه وجمعة أسماء
تكون مهينة لجمعة وترمز إلى مديونيته. "أولاً، أخبرته أن اسمه يجب أن يكون جمعة، وهو
اليوم الذي أنقذت فيه حياته؛ أطلقت عليه هذا الاسم لذكرى ذلك الزمن؛ علمته أيضاً أن يقول
سيد، ثم أخبرته أن هذا سيكون اسمي."

⁶ يأتي ذكر كتاب الجمهورية هنا سهواً. عنوان كتاب أرسطو هو السياسة، وكتاب الجمهورية هو لأفلاطون –
كم هو واضح في هوامش الكاتب في آخر الدراسة.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

الخطوة 2. يُرسخ روبنسون أيضًا المكانة النسبية من خلال تغطية عري جمعة بزوج من الكتان (مأخوذ من حطام السفينة) وسترة بدون أكمام مصنوعة من جلد الماعز وغطاء للرأس من جلد أرنب بري صنعه بنفسه. لقد كان سعيدًا للغاية لرؤية نفسه يرتدي ملابس جيدة تقريبًا مثل سيده.

الخطوة 3. يخصص روبنسون لجمعة مكانا للنوم بين جداري التحصينات، أي في مكان وسط، محمي جزئيًا ولكن خارج المكان المخصص للسيد. ويُركب جهاز إنذار من السرقة بحيث أن "جمعة لا يمكنه الوصول إليّ في عمق المأوى الداخلي من دون إحداث الكثير من الضوضاء يؤدي إلى إيقاظي"، ويتخذ إجراءات وقائية أخرى مثل أخذ كل الأسلحة ووضعها إلى جانبه كل ليلة. ومع ذلك، كما يقول روبنسون، لم تكن هناك حاجة إلى هذه الاحتياطات حقًا، "لأنه لم يكن لدى إنسان أبدًا خادم أكثر إخلاصًا ومُحبًا وصدقًا من جمعة؛ بدون عواطف أو كآبة أو مخططات، ملتزم ومنشغل تمامًا في عمله؛ كانت عواطفه مرتبطة بي مثل تلك التي تربط الطفل بأبيه؛ وأجرؤ على القول إنه كان سيضحى بحياته من أجل إنقاذ حياتي في أي مناسبة على الإطلاق." إن تخصيص هذه المساحة تساعد على تذكير جمعة بمكانته وإبقائه تابعًا.

الخطوة 4. بعد ذلك يتم إعطاء جمعة المهارات اللازمة لمكانته وواجباته، أي القدرة على فهم الأوامر وتلبية احتياجات روبنسون. "لقد أخذتُ على نفسي مهمة تعليمه كل ما هو مناسب لجعله مفيدًا مستعدًا للعمل ومساعدًا؛ ولكن بشكل خاص لجعله يتحدث ويفهمني عندما أتحدث."

الخطوة 5. تأتي بعد ذلك لحظة حاسمة يقوم فيها روبنسون، من خلال عرض قاسٍ للقوة، بإرغاب جمعة المسكين واستسلامه الكامل. يخرج روبنسون ومعه جمعة ويطلق النار من بندقيته ويقتل ماعزًا صغيرًا. (الآن لم يعد روبنسون خائفًا من أن لا يُطاع).

لقد كان اندهاش هذا المخلوق البائس، الذي كان يشاهدني في الواقع على مسافة مني وأنا أقتل المتوحش، عدوه، ولكنه لم يكن يعرف أو يمكن أن يتصور كيف تم ذلك، معقولًا.... هو لم ير الماعز الصغير الذي كنت قد أطلقت عليه النار أو يدرك بأنني قد قتلته، ولكنه مزق سترته ليتحسس إن كان قد جرح، وكما وجدت في الحال، فإنه اعتقد أنني عازم على قتله، لأنه جاء وركع أمامي، وقال، محتضنًا ركبتي، أشياء كثيرة لم أفهمها؛ ولكن سرعان ما اكتشفت المعنى بسهولة، التوسل مني كي لا أقتله.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

في طقوس الموت والولادة هذه، يتعلم جمعة المدى الكامل لسلطة روبنسون عليه. بعدها يقوم روبنسون بقتل حيوانات مختلفة، ويُعلم جمعة "الركض وإحضار" [الحيوانات المقتولة] مثل الكلب. لكنه يحذر أن لا يراه جمعة مطلقاً وهو يشحن البندقية، حتى يظل جاهلاً بحقيقة أنه يجب عليك وضع الذخيرة في البندقية.

الخطوة 6. اكتملت المرحلة الأولى من التلقين، يستطيع روبنسون الآن الانتقال إلى إنشاء التقسيم الاجتماعي للعمل على أساس أكثر دقة. يُعلم جمعة الطبخ والخبز، "وفي وقت قصير كان جمعة قادراً على القيام بكل الأعمال من أجلي، تماماً مثلما كنت أقوم بها بنفسي." ثم حدد روبنسون قطعة أرض "لم يعمل فيها جمعة عن طيب خاطر وبجد فحسب، بل فعل ذلك بمرح." يوضح روبنسون أن العمل كان لإنتاج الحنطة لصنع المزيد من الخبز حيث يوجد الآن اثنان. جمعة، بمفرده، يكتشف قوانين الملكية والتوزيع الرأسمالي للدخل بشكل مبهم تماماً. "لقد بدا حساساً جداً تجاه هذا الجزء، وأخبرني أنه يعتقد أن لدي الكثير من العمل المبذول لحسابه أكثر مما بذلتُ لنفسِي، وأنه سيعمل بجد أكبر من أجلي، إذا أخبرته بما يجب عليه أن يفعله."

الخطوة 7. التخرّج. يقوم روبنسون الآن بإرشاد جمعة لمعرفة الإله الحقيقي. يستغرق هذا التعليم ثلاث سنوات، يثير خلالها جمعة أسئلة صعبة بحيث أن روبنسون يتوقف لفترة، مدرّكاً أن المرء لا يستطيع الفوز عن طريق الحجة المنطقية لوحدها، وأن الوحي الإلهي فقط يمكن أن يُفنع الناس بالمسيحية. وأخيراً، يتحقق النجاح. "لقد صار الهمجي الآن مسيحياً جيداً." ويصبح الاثنان أكثر حميمية، ويخبر روبنسون جمعة قصته، وأخيراً وبعد طول انتظار "أطلعت على اللغز، فهو كان كذلك بالنسبة له، لغز البارود والرصاص وعلمته كيفية اطلاق النار." يعطي روبنسون جمعة سكيناً وفأساً ويبين له القارب الذي كان يخطط لاستخدامه للهرب.

الخطوة 8. الشرطي الأبدي. حتى بعد منحه الاستقلال، لا يمكن لروبينسون أن يثق بجمعة. فالسيد لا يمكن أبداً أن يرتاح بأمان. في أحد الأيام، أثناء مشاهدة البر الرئيسي من أعلى تل في الجزيرة، لاحظ روبنسون شعوراً غير عادي بالمتعة ظهر على وجه جمعة ... ولهفة غريبة، كما لو كان باله مشغولاً ليكون في بلده مرة أخرى؛ ملاحظتي هذه ولدت الكثير من الأفكار عندي، الأمر الذي جعلني في البداية غير مرتاح تجاه رجلي الجديد جمعة كما كنت من قبل؛ ولم أشك في ذلك، لكن إذا تمكن جمعة من العودة إلى أمته مرة أخرى، فإنه لن ينسى كل دينه فحسب، بل كل واجباته تجاهي؛ وسيكون متقدماً بما يكفي ليُدلي لمواطنيه قصتي، ويعود، ربما مع مائة أو مائتين منهم، ويجعل مني وليمة، حيث قد يكون عندها سعيداً كما كان مع أعدائه، عندما أسروهم في الحرب.



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

استمر روبنسون في طرح الأسئلة على جمعة لمعرفة ما اذا كان يستطيع كشف أي جوانب مخفية لدى جمعة؛ ثم يشعر بالذنب لشكوكه. الإمبريالية لا تعرف السلام.

(5) الشراكة وإعادة الإنتاج الموسع Partnership and Expanded Reproduction

لما يقرب من عشر سنوات، بين الوقت الذي رأى فيه لأول مرة بصمة قدم في الرمال حتى التقائه بجمعة، عاش روبنسون كروزو حياة من الخوف والقلق والهموم تقلصت خلالها أنشطته الإنتاجية إلى الحد الأدنى وبالكاد كان يتجرأ على المغامرة خارج الحدود الضيقة لمعاقله. عندما يظهر جمعة، يتوسع في أنشطته مرة أخرى، يُعلم، يبني، يراكم. على الرغم من عدم وجود ذكر للمحاسبة، يمكن للمرء أن يستنتج أن العمل أصبح ذا قيمة مرة أخرى، لأن روبنسون كان مرة أخرى هادفًا، ومهتمًا بالتخصيص allocation والكفاءة، حيث يأمر، ويدفع جمعة أن يفعل شيئًا أو آخر، يوجهه، ويبين له، ويقدم له التوجيهات، ويجعل الأشياء مألوفة له، يجعله يفهم، يُعلمه، يتركه أن يرى بنفسه، يمنعه، يريجه، ويأمره بالركض والجلب، يجعله يعمل، يجعله يبني شيئًا، إلخ، إلخ. من خلال علاقته الاجتماعية بجمعة يصبح روبنسون رجلاً اقتصادياً. ويصبح جمعة العامل ويصبح هو رأس المال — يبتكر وينظم ويبني إمبراطورية.

بعد حوالي ثلاث سنوات من وصول جمعة، السنة السابعة والعشرون لروبينسون في الجزيرة، تأتي فرصة التوسيع. إذ يصل واحد وعشرون متوحشًا وثلاثة سجناء إلى الشاطئ. يُقسّم روبنسون السلاح بينه وبين جمعة ويشرعان في الهجوم. في الطريق، يبدأ الشك يساور روبنسون مرة أخرى فيما إذا كان من الصواب "إغراق يدي في الدماء، لمهاجمة بشر لم يعملوا على أو يتقصّدوا إيذائي." ويلاحظ أن "جمعة قد يبرر ذلك، لأنه كان عدوًا مُعلنًا، وفي حالة حرب مع هؤلاء البشر بعينهم؛ ومهاجمته لهم قانوني،" ولكن، بما أنه لا يستطيع أن يقول الشيء ذاته لنفسه، يقرر من جانب واحد [دون استشارة جمعة] ألا يشرعاً بالهجوم إلا إذا "نشأ وضع هو بمثابة دعوة لي [للتحرك] مما أعرفه حتى الآن."

تأتي الدعوة عندما يكتشف أن أحد الضحايا رجل أبيض ويصبح "غاضبًا إلى أقصى حد." وكما يتبين فإن السجين إسباني. بالنظر إلى ما قاله روبنسون سابقًا عن السياسة الاستعمارية الإسبانية، ربما يعتقد المرء أنه سيكون لدى روبنسون بعض الشكوك حول ما هو قانوني. لكنه لم يفعل، ويهاجم مع جمعة — مما أسفر عن مقتل سبعة عشر وهزيمة أربعة. (يقوم جمعة بمعظم عمليات القتل، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن "استهدافه كان أفضل بكثير" من روبنسون، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن روبنسون كان يقوم بالتوجيه ويقوم جمعة بالتنفيذ). تم إنقاذ الإسباني



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

ووجدوا ضحية أخرى في مركب تبين أنه والد جمعة، لحسن الحظ أنقذت حياته لأن زميله الأسير كان أبيض.

الآن صاروا أربعة. روبنسون لديه إمبراطورية يحكمها بحزم وبالعدل مع درجة معينة من التساهل والتسامح.

أصبحت جزيرتي الآن مأهولة بالسكان، واعتقدت أنني غني جدًا بالرعايا؛ وقد كان ذلك فكرة ممتعة، كنت أتأمل به كثيرًا، كم أنا شبيه بملك. بادئ ذي بدء، كان البلد [الجزيرة] بأكمله ملكية خاصة لي، لذلك كان لي حق لا شك فيه في السيطرة. ثانيًا، كان شعبي خاضعًا تمامًا. كنت السيد والمشرع المطلق؛ فالجميع كانوا يدينون بحياتهم لي، وكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم من أجلي، إذا كانت هناك مناسبة لذلك. كان من الرائع أيضًا أنه لم يكن لدينا سوى ثلاثة رعايا، وكانوا من ثلاث ديانات مختلفة. كان تابعي جمعة بروتستانتيًا، وكان والده وثنيًا ومن أكلة لحوم البشر، وكان الإسباني باباويًا [كاثوليكيًا]. ومع ذلك فقد سمحت بحرية الفكر في جميع أنحاء مملكتي.

انتهت فترة التراكم البدائي. روبنسون لديه الآن ملكية. هذه الملكية لا تقوم على عمله السابق، ولكن على حيازته للسلاح. على الرغم من أن رأسماله يأتي إلى العالم وهو ينزف بالدماء من كل مسام، إلا أن ملكيته لا جدال فيها. لم يكن جمعة نذلاً كسولاً ينفق رزقه وأكثر بالعيش معرّبًا، ومع ذلك في النهاية لم يكن لديه سوى نفسه، بينما تزداد ثروة روبنسون كروزو باستمرار على الرغم من توقفه عن العمل منذ فترة طويلة.

مع مرور الوقت، يصل عدد أكبر من الناس إلى جزيرته. يستخدم روبنسون بدهاء احتكاره لوسائل الإنتاج لجعلهم خاضعين لحكمه. مع نمو الإمبراطورية، تصبح مشاكلها أكثر تعقيدًا. لكن روبنسون واسع الحيلة دائمًا في استخدام الإرهاب والدين وقانون الحدود frontier law، ومبدأ تفويض السلطة لتعزيز موقعه وإنتاج نظام يعيد إنتاج نفسه.

يكتشف روبنسون أن هناك أربعة عشر من الإسبان والبرتغاليين الذين مع الكاريبيين "يعيشون هناك في سلام بالفعل مع الوحوش savages". كان لديهم أسلحة ولكن لم يكن لديهم بارود ولا أمل في الهروب، لانهم لا يمتلكون "سفينة، أو الأدوات لبناء سفينة، أو مؤن من أي نوع." روبنسون بالطبع لديه المكونات المفقودة لنجدتهم، ولكن كيف يمكن أن يكون متأكدًا من أن الثمن سيسدد؟ "أكثر ما كنت أخشاه هو الغدر وسوء استخدامي، إذا وضعت حياتي في أيديهم، ذلك لأن الامتنان ليس فضيلة متأصلة في طبيعة الإنسان؛ كما أن البشر لا يلتزمون بصدق وعدالة مقابل ما تلقوه وبما يعادل المزايا التي يتوقعونها."



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

لا يمكن لروبنسون الاعتماد على القانون لحماية ملكيته. بدلا من ذلك يستخدم الدين. لا يحتاج الأوروبيون إلى وضع إجراءات تنشئة اجتماعية مثل التي خضع لها جمعة لأنهم بفضل التعليم والتقاليد والعادة صاروا ينظرون إلى الملكية الخاصة على أنها قانون طبيعي بديهي. سيذهب الإسباني ووالد جمعة إلى حيث يقيم الأوروبيون الآخرون. ثم يوقعون عقداً، يقضي بأنهم "يجب أن يكونوا تحت قيادتي تماماً، كقائد وقبطان؛ وأن يُقسموا على الأسرار المقدسة Holy Sacraments والإنجيل ليكونوا صادقين معي وأن يذهبوا إلى بلد مسيحي يجب أن أوافق عليه دون غيره؛ وأن يتم توجيههم كلياً وبشكل مطلق من خلال أوامري." يحول روبنسون ديونهم له إلى التزام تجاه الله. وهكذا يُحكم البشر من نتاجات عقولهم.

تم تأجيل الرحلة لمدة عام، بينما يجري توسيع رأسمال روبنسون بحيث سيكون هناك ما يكفي من الغذاء للمجندين الجدد. عملية العمل هي الآن أكثر تعقيداً بسبب الزيادة في الأعداد. صار هناك هيكل عمودي يفصل بين العمليات، والتنسيق، والاستراتيجية على أساس الجنسية— نموذج مصغر من شركة متعددة الجنسية. "قمتُ بوضع علامة على عدة أشجار التي أرى أنها صالحة لعملنا، وخصصت لجمعة ووالده عمل قطع هذه الأشجار؛ وبعد ذلك دفعتُ الإسباني، الذي كنت قد أسرتُ له فكرتي بهذا الشأن، للإشراف وتوجيه عملهما."

مع بدء الحصاد، أرسل الإسباني ووالد جمعة للتفاوض. أثناء غيابهما، تصل سفينة إنجليزية إلى الجزيرة. يشعر روبنسون بفرح لا يوصف عند رؤية سفينة "يديرها مواطنوه، وبالتالي أصدقاؤه." ومع ذلك، في الوقت نفسه، كانت هناك "بعض الشكوك السرية التي تراوده عنهم،" ربما لأنهم كانوا لصوصاً وقتلة. وكما رأينا فإن هذا هو رد فعل نموذجي لروبنسون كروزو تجاه الآخرين. إنها صفة حكيمة في مجتمع من الأفراد الممتلكين possessive individuals حيث يكون الجميع عدواً لكل واحد منهم. مسؤولية المشتري Caveat Emptor [على المشتري أن يكون حذراً].

جاء بعض أفراد الطاقم إلى الشاطئ ومعهم ثلاثة سجناء. أثناء ما كان السجناء دون حراسة، يقترب منهم روبنسون: "أنا رجل، رجل إنجليزي، ومستعد لمساعدتكم، كما ترون لدي خادم واحد فقط؛ لدينا أسلحة وذخيرة؛ أخبرونا بحرية، هل يمكننا خدمتكم؟" تبين أن السجناء الثلاثة هم قبطان السفينة ومساعدته وراكب واحد. والآخرون متمرّدون، يقول القبطان عنهم: "كان بينهم اثنان من الأشرار اليائسين إلى درجة أنه لم يكن آمناً إبداء أي رحمة تجاههم" ولكن إذا تم حجزهم، فإنه يعتقد أن "البقية سيعودون إلى واجباتهم."



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

بعد توجيه التهم يتم التوصل إلى قرار سريع وإصدار حكم. روبنسون يقف مع السلطة. يقدم القبطان عقدًا سخياً لروبينسون: "يجب أن يكون هو والسفينة، في حالة استعادتها، موجهًا وخاضعًا لقيادتي بالكامل في كل شيء؛ وإذا لم يتم استرداد السفينة، فسوف يعيش ويموت معي في أي جزء من العالم أرسله إليه؛ وكذلك الرجلين الآخرين." يطلب روبنسون أقل من ذلك بكثير: الاعتراف بسلطته بلا منازع أثناء وجودهم في الجزيرة، حرية المرور إلى إنجلترا لنفسه وجمعة إذا تم استرداد السفينة.

تعرض الرجال الذين أحضروا القبطان إلى الشاطئ للهجوم. جرى إعدام الشريرين بإجراءات موجزة في الجولة الأولى، وأصبح البقية سجناء أو أُسْمِحَ لهم بالانضمام إلى القبطان وروبينسون. بدأ إرسال المزيد من الرجال إلى الشاطئ من السفينة، وسرعان ما يتم أسرهم. أحدهم أصبح سجينًا، وقيل للآخرين أن روبنسون هو حاكم الجزيرة وأنه سيطلب العفو عنهم إذا ساعدوا في الاستيلاء على السفينة. تم الاستيلاء على السفينة مع فقدان حياة واحدة فقط، وهي حياة القبطان الجديد. روبنسون، الذي لا يزال يتظاهر بأنه الحاكم، يقابل السجناء الخمسة وعند الاستماع إلى "سرد كامل لسلوكهم الشرير تجاه القبطان، وكيف أنهم هربوا بالسفينة وكانوا يستعدون لارتكاب المزيد من عمليات السطو،" يقدم لهم خيار تركهم في الجزيرة أو اصطحابهم إلى إنجلترا مقبدين بالسلاسل ليتم شقهم. اختاروا الجزيرة وصار روبنسون أكثر ثراءً. القانون يخلق المجرمين والمجرمين يتحولون إلى مستوطنين. في تكرار لدرسه للتطوير [التخويف]، يأمر روبنسون القبطان "بإعدام القبطان الجديد، الذي قُتل، في ساحة السفينة، حتى يراه هؤلاء الرجال."

في التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر عام 1686، أي بعد ثمانية وعشرين عامًا وشهرين من وصوله، يصعد روبنسون إلى متن السفينة، حاملاً معه قبعته الكبيرة المصنوعة من جلد الماعز، ومظلته، وأحد بيغاواته، والمال الذي أخذه من السفينة. كما أنه يأخذ معه جمعة لكنه لا ينتظر عودة والد جمعة وإسبان. وبدلاً من ذلك، يترك لهم رسالة مع السجناء الذين ظلوا في الجزيرة، بعد أن جعلهم "يعدون بمعاملتها مثلما يعاملون أنفسهم."

يعود روبنسون إلى الحضارة ويكتشف قوة رأس المال للنمو الذاتي المستدام. كان أمناءه trustees قد قدموا في حساب "إنتاج الجزء الخاص بي من المزرعة إلى الوكيل المالي، الذي استحوذ عليه، في حال عدم عودتي نهائياً لأقوم بالمطالبة بها، ثلثها للملك، وثلثها لدير القديس أوغسطين، ليتم إنفاقه لصالح الفقراء وتحويل الهنود إلى الإيمان الكاثوليكي؛ ولكن من أجل ذلك لورجعت، أو ظهر أي شخص نيابة عني، للمطالبة بالميراث، فيجب استعادتها: فقط التحسينات، أو الإنتاج السنوي، الذي يتم توزيعه على الاستخدامات الخيرية، لا يمكن استعادته."



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

وهكذا صار رجلاً ثرياً، "سيد كل شيء فجأة بحوالي 5,000 جنيه إسترليني من النقود، ولي منزل كبير في الريف، كما يمكن أن أسميه، في البرازيل، بحوالي ألف جنيه إسترليني سنوياً، تماماً مثل ملكية الأراضي في إنجلترا."

كان لديه أيضاً جزيرته التي عاد إليها في 1694. ويكتشف كيف واجه الإسبان مشكلة مع الأشرار عندما عادوا لأول مرة ولكنهم أخضعوهم في النهاية، وكذلك معاركهم مع الكاريبيين، والتحسين الذي قاموا به في الجزيرة نفسها وكيف قام خمسة منهم بمحاولة الوصول إلى البر الرئيسي، و جلبوا أحد عشر رجلاً وخمس سجينات، والتي، عند مجيئي، وجدت حوالي عشرين طفلاً صغيراً في الجزيرة. " جلب لهم روبنسون المؤن، ونجاراً، وحداداً، وأرسل فيما بعد سبع نساء "مناسبات للخدمة أو لاتخاذهن زوجات."

قبل أن يغادر الجزيرة، أعاد تنظيمها على أساس سليم. بتقسيمها إلى أجزاء، يحتفظ لنفسه بملكية الكل، ويعطي الآخرين مثل هذه الأجزاء على التوالي كما اتفقوا عليها. أما الإنجليز، فقد ودهم بإرسال بعض النساء من إنجلترا، "وقد أثبت الرجال أنهم صادقون ومثابرون للغاية بعد إتقانهم وتمييز ممتلكاتهم." مع ترسيخ الملكية والعائلة، فإن الأرضية واضحة للنمو المطرد.

(6) العبرة

Moral

قد نتوقف عند هذه النقطة وننظر في معدل العائد المرتفع للغاية الذي حققه روبنسون على رأسماله الأصلي البالغ 40 جنيهًا إسترلينيًا. لا يمكن القول إنه عمل بجد من أجل أمواله، لكنه كان بالتأكيد مُنظماً ورائد أعمال رائعاً، وأظهر قدرة غير عادية على الاستفادة من المواقف وإدارة الأشخاص الآخرين. لقد عانى آلام العزلة وردائل الجشع وعدم الثقة والقسوة، لكنه انتهى به الأمر مع "الثروة من حولي" وجمعة — "يثبت دائماً أنه خادم أكثر إخلاصاً في جميع المناسبات".

تعطينا قصة روبنسون كروزو الرمزية تاريخاً اقتصادياً أفضل ونظرية اقتصادية أفضل من العديد من الحكايات التي رواها علم الاقتصاد الحديث حول التقسيم الوطني والدولي للعمل. يميل [علم] الاقتصاد إلى البقاء في السوق والقلق بشأن الأسعار. إن القصة تقول الكثير عن علاقة سكر روبنسون بملابسه أكثر من علاقته بجمعة. لفهم كيف يُنتج رأس المال وإنتاجه، يجب أن نترك المجال لصاحب السوق حيث يحدث كل شيء على السطح والدخول إلى الأجزاء



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

المخفية للمصنع والشركة، حيث لا يُسمح عادة بالدخول إلا لأغراض الأعمال التجارية [الـ
[business

يتم نقل رأسمالي [روبينسون كروزو] ديفو إلى جزيرة غير مأهولة desert island خارج نظام السوق، وعلاقاته بالآخرين مباشرة وواضحة. وفيها يتكشف سر رأس ماله، أي أنه يقوم على عمل الآخرين ويتم الحصول عليه من خلال القوة والوهم. إن شهادة ميلاد رأسمال روبينسون ليست دموية مثل العديد من الثروات الأخرى، لكن طبيعتها القسرية واضحة.

لا يتألف الاقتصاد الدولي في عصر روبينسون، وكما هو الحال اليوم أيضاً، من شركاء متساوين ولكنه منظم على أسس طبقية. يحتل روبينسون أحد المستويات العليا والمتوسطة من الهرم. (أعلى المستويات موجودة في عواصم أوروبا). القباطنة والتجار والمزارعون هم مجموعة أقرانه. يتبادل معهم على أساس التعاون الأخوي. (باستثناء القباطنة العرب).⁷ يقومون بتعليمه، وإنقاذه، والقيام بأعمال تجارية من أجله، ومنعه من الوقوع إلى ما دون طبقته. وهو بدوره يعتبرهم عموماً رجالاً صادقين ونزيهين، ويقف إلى جانبهم ضد مرؤوسيه المتمردين، ويتساهل معهم في مساوماته. لكنه أكثر تطلباً تجاه البيض من رتبة أدنى. إذا عصوا فهو شديد معهم، ولكن إذا كانوا مخلصين، فهو على استعداد لتقاسم بعض الغنائم وتفويض بعض السلطة لهم. الأفارقة والكاريبين يباعون أو يقتلون أو يدرّبون أو يستخدمون كزوجات من قبل رجاله، حسب الحالة. فيما يخص الخدم البيض المستعبدين، والحرفيين، وما إلى ذلك، فلم يذكرهم ديفو إلا قليلاً في هذه القصة.

التناقضات بين روبينسون وأعضاء آخرين في التسلسل الهرمي تعطي القصة دينامياتها. فهو في صراع دائم مع مشكلة إخضاع المستويات الدنيا ومحاولة القفز فوق مستواه الطبقي. حقيقة أنه لا يرى الأمر بهذه الطريقة ولكنه يفضل اختلاق قصص عن نفسه لا يشكل فرقاً. فهو ينفي التعارض بينه وبين جمعة بقبول قناع جمعة الإرادي للطاعة. وهو يعتبر جشعه جريمة بحق الله لا بحق الإنسان. لكن حياته اليومية تظهر أن علاقاته الاجتماعية عدائية وأنه يعرف ذلك.

لكن في التحليل الأخير، فإن القصة جدلية جزئياً فقط. فنحن نسمع فقط عن كيف يدرك روبينسون التناقضات وكيف يقوم بحلها. في هذا العمل الروائي، يمكنه دائماً دمج اثنين في

⁷ ربما لأن روبينسون كروزو أستعبد من قبل المغاربة، كما جاء في القسم الأول من هذه الدراسة تحت عنوان "رأسمال التجار" حيث نقرأ أن روبينسون "ينطلق في رحلة ثانية كتاجر في غينيا من أجل كسب المزيد من رأس المال. ولكن بدلاً من ذلك يتعرض لكارثة إذ يستولي المغاربة Moors على السفينة ويصبح عبداً في شمال أفريقيا."



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

واحد. في الحياة الواقعية، ينقسم الواحد إلى اثنين، ويتطور النظام إلى ما بعد تخيل الرأسمالي عن القانون والنظام المناسبين. إن علم الاقتصاد يحتاج أيضاً إلى قصة أحفاد جمعة. ■

هوامش الكاتب

Notes

1. Karl Marx, *Capital* (New York: International Publishers, 1967), vol. 1, 751.
2. For studies of Defoe dealing with economic aspects see: E.M. Novak, *Economics and Fiction of Daniel Defoe* (Berkeley: University of California Press, 1962); H. M. Robertson, *Aspects of the Rise of Economic Individualism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1933); Ian Watt, *The Rise of the Novel* (Berkeley: University of California Press, 1957); Dorothy Van Ghent, *The English Novel* (New York: Harper and Row, 1961), chapter on *Moll Flanders*; Brian Fitzgerald, *Daniel Defoe* (London: Secker and Warburg, 1954); Pierre Macherey, *Pour une Theorie de la Production Litteraire* (Paris: Francois Maspero, 1966); John Richetti, *Popular Fiction Between Defoe and Richardson* (New York: Oxford University Press, 1969). All quotations and excerpts in the text of this article are from Daniel Defoe, *Robinson Crusoe* (New York: New American Library, 1961).
3. John Maynard Keynes, "Economic Possibilities for Our Grandchildren," in *Essays in Persuasion* (New York: W.W. Norton, 1963), 370.
4. See Karl Polanyi, "Aristotle Discovers the Economy," in Karl Polanyi, et. al., *Trade and Market in the Early Empires* (New York: Free Press, 1957), 64-94; A. French, *The Growth of the Athenian Economy* (London: Routledge and Kegan Paul, 1964).



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

5. John Maynard Keynes, "National Self-Sufficiency," *Yale Review*, vol. 22 (Summer 1933), 755-69.
6. R.D. Laing, *The Politics of Experience* (New York: Pantheon, 1967), 36.
7. Aristotle, *The Politics* (New York: Oxford University Press, 1946), book 1, chapter 5, 1254, b7-b9.



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

حاشية للمترجم

نشرت هذه الدراسة أصلاً في مجلة مونثلي ريفيو:

Monthly Review, [2011, Volume 63, Issue 04 \(September\)](#)

[Robinson Crusoe and the Secret of Primitive Accumulation](#)

يعتبر ستيفن هايمر (1934-1974) اقتصادياً بارزاً في تأسيس نظرية الشركة متعددة الجنسية، والاقتصاد السياسي لرأس المال الشركات متعددة الجنسية، وتأكيد على سمات الاحتكار التي تميز هذه الشركات، وساهم في جعل موضوع اهتمامه مجالاً للدراسة الأكاديمية. وهو أول من استخدم مصطلح الاستثمار الأجنبي المباشر Foreign Direct Investment. وقد جاء ذلك بفضل أطروحة الدكتوراه التي كتبها في عام 1960 وعرضها للنشر في عام 1976 أساتذته المشرف المؤرخ الاقتصادي شارلز كندلبرغر (1910-2003) Charles Kindleberger. وكان عنوان الأطروحة: *The International Operations Of National Firms, A Study Of Direct Foreign Investment* وهو متوفر في الشبكة العنكبوتية للتحميل:

<https://dspace.mit.edu/handle/1721.1/27375>

في مرحلة لاحقة من تطوره الفكري تحول نحو الماركسية وأخذ بتطبيق منهجها كما هو واضح في هذه الدراسة المترجمة.

هذه المعلومات مقتبسة من:

Jairus Banaji, “The Radicalisation of Stephen Hymer”

<https://www.historicalmaterialism.org/node/1829>

Christos N. Pitelis, “Stephen Hymer: Life and the Political Economy of Multinational Corporate Capital”

[Stephen Hymer: Life and the Political Economy of Multinational Corporate Capital | Contributions to Political Economy | Oxford Academic \(oup.com\)](#)

<https://academic.oup.com/cpe/article/21/1/9/393388>



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

للمزيد من المعلومات راجع:

https://en.wikipedia.org/wiki/Stephen_Hymer#:~:text=Stephen%20Hymer%20is%20considered%20to,of%20theories%20of%20multinational%20enterprises.

هناك ترجمة عربية لمخلص كتاب دانيال ديفو روبنسون كروزو تُقدم على أنها قصة للأطفال:

<https://www.hindawi.org/books/48246418/>

(*) ستيفن هايمر (1934-1974)، كان أستاذ الاقتصاد في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية حتى وفاته.

(**) مصباح كمال باحث وكاتب أكاديمي في قضايا التأمين والتاريخ الاقتصادي

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر. 28 نيسان 2022

<http://iraqieconomists.net/ar/>